

## الفصل التاسع

### الطب في القرن الثالث

سبق لنا تناول الأعمال الطبية ضمن الفصل المتعلق بالتشريح لأن علماء التشريح كانوا أطباء أى إنهم كانوا مدرّبين طبيّاً وعلى وعى بالمسائل الطبية حتى ولو لم يزاولوا هذا الفن ، وعلاوة على ذلك فإن التقاليد التشريحية والطبية تتشابه إلى حد أن المرء لا يستطيع الفصل بينهما تماماً .

ولقد كانت الأعمال المذهلة التي حققها علماء التشريح الإسكندرّيين والتي وصفت في الفصل السابق ، ذروة تاريخ يمكن تلخيصه عن طريق تعداد الأسماء الآتية : ديوكليس من كاريستوس وبراكساجوراس الكوسى وهيروفيلوس من خلقيدون وإرازيستراتوس الكيوسى ويوديموس من الإسكندرية .

ولقد تتابع هؤلاء الرجال الخمسة ، الواحد إثر الآخر في غضون قرن واحد ، لنقل إنه ٣٤٠ - ٢٤٠ . وعلى قدر ما يمكن الحكم به بناء على قصة جالينوسية كان براكساجوراس معلم طب عظيمًا ، إذ عند ما سئل جالينوس عن الفريق الذي يتبعه أجاب « لغير أحد » ، ثم أضاف أنه يعتبر الذين يقبلون تعاليم أبقرات (هيبوكراتيس) أو براكساجوراس أو أى شخص آخر<sup>(١)</sup> على أنها حاسمة ما هم إلا عبید ، وتسوية جالينوس بأبقرات كان ولا شك شرفاً عظيماً .

براكساجوراس وهيروفيلوس وإرازيستراتوس كانوا في المحل الأول علماء تشريح ، ولكنهم كانوا أيضاً أطباء . ولتندبر النبض ، فعلى الرغم من أن الأطباء المصريين كانوا قد أدخلوه في الحساب وحاولوا قياسه<sup>(١)</sup> فإن الكتابات الأبقراطية لم تلتفت إليه إلا قليلاً ، وعلى قدر ما نعرف كان براكساجوراس أول طبيب يونانى يفحص النبض ويفيد منه في التشخيص .

ولقد أدخل هيروفيلوس تحسيناً على هذه النظرية مستعملاً ساعة مائية ولقياس سرعة النبض لمعرفة الحمى عن هذا الطريق ، ولقد تبين له أن قوة النبض تدل على قوة القلب ، وكانت دراسته للأمراض تقوم على المشاهدة والتجربة ، ولقد حسن طرق التشخيص والإنذار ، وأدخل أدوية جديدة عديدة وكثيراً ما كان يلجأ إلى فصد الدم . وكان هيروفيلوس يرى أن الجنين ذو حياة فيزيقية فقط وليست هوائية ، ولقد اخترع قاطع جنين لتقطيع الحمل داخل الرحم ، وهو آلة استعملها المولدون القدامى في الحالات الميئوس منها ، وعلى غرار من سبقوه من الأطباء اليونانيين كان هيروفيلوس يعلق كثيراً من الأهمية على التغذية والرياضة .

وكان إرازيستراتوس أول طبيب ينبذ بالكلية نظرية الرطوبات ، وكذلك كان أول من فرق بوضوح بين التدبير الصحى وبين المداواة ، وكان يعلق أهمية أعظم على التدبير الصحى . . . ولهذا كان إلحاحه فى مراعاة التغذية والرياضة الصحىة والاستحمام . وكان إرازيستراتوس يعارض العلاجات العنيفة والإفراط فى استعمال العقاقير والإسراف فى فصد الدم ( كان فى كثير من هذا مجرد تابع لآراء أبقرات ) وهو الذى اخترع القسطرة السجمية الشكل .

ومعلوماتنا عن هؤلاء الرجال ضئيلة ، ولكن يخيل للمرء أنهم وضعوا نشاطهم الطبى فى خدمة بحوثهم العلمية ، وبقدر ما كانوا علماء ممتازين يستندون إلى النظام العلمى بمعهد العلوم لا بد أنهم تحققوا من أن البحث التشرىحى يؤدى إلى نتائج ملموسة على حين أن دراسة الأمراض والعلاج كانت لا تزال لطبيعتها مليئة بالغموض ، وهم ما كانوا يستطيعون التخلّى كلية عن واجباتهم الطبية ، إذ أن كل علاج ما هو إلا تجربة طبية ولكن اهتمامهم الرئيسى كان موجهاً إلى غير ذلك .

### أبلودوروس الإسكندرى ونيكاندروس القولوفونى

تمثل الكتابات الطبية فى العصر البطلميوسى الأول فى رسائل أبولودوروس

الإسكندري المفقودة ، وكانت إحداها تتناول الحيوانات السامة والأخرى تتناول العقاقير الضارة أو المميته ، ويبدو أن تلك الرسائل كانت هي المصدر الرئيسي لكثير غيرها تناول العقاقير وخاصة السموم . ولقد كان القدماء في رعب شديد من السموم التي قد يعرضهم لها سوء الحظ أو العداوة ، وكان للطغاة أسبابهم الخاصة ليخافوا السموم ولذا كانوا يبدأون جاهلدين في البحث عن ترياقات ، وستقابل أمثلة من هذه المخاوف فيما بعد .

وكان أول من استعمل مؤلف أبولودوروس هو الشاعر نيكاندروس القولفوني ( في آسيا الصغرى ) الذي أسدى من الخدمات إلى الزراع وعلماء النبات والأطباء مثل ما أسداه أراتوس إلى الفلاحين وعلماء الفلك . وتاريخ نيكاندروس صعب التحقيق . وإذا نحن وضعنا أبولودوروس في أوائل القرن الثالث ، فمن الجائز أن يوضع نيكاندروس في وسطه<sup>(٢)</sup> ، وهكذا يكون معاصراً أصغر لأراتوس ونيوكريتوس . ونيكاندروس كان قسيساً لأبولون بالوراثة في كلاروس ( بالقرب من قولفون ) ، ولقد كتب قصائده في موضوعات عديدة من حماسية وغزلية ، ولكن أغلبها كان تعليمياً في تربية الماشية والنحل أو يحوى إنذارات عن العلاج ( أخذاً عن أبقراط ) وعن الثعابين وهكذا ، وقد يكون بعض كتاباته نثراً ، ولكن كل شيء وصل إلينا كان شعراً . ونيكاندروس كان ترجماناً نموذجياً كل ما عليه أن يضع ما هو معروف في صيغة موزونة ( كان عمل مثل هؤلاء الرجال شبيهاً بعمل الكتاب العلميين الذين يبسطون العلوم اليوم ) ، وكانت قصائده عن الفلاحة وتربية النحل معروفة لشيرون وتأثر بها فيرجيل . وأنا إلى الآن لم أذكر أهم قصائده وهما الإثنان الوحيدتان الموجودتان كاملتين ، وهما عن الحيوانات السامة ( الترياقات ضد الحيوانات السامة — ٩٥٨ شطرة ) وعن العقاقير المضادة للسموم ( ٦٣٠ شطرة ) ، والرسالتان مستمدتان من أبولودوروس . والرسالة الثانية تحوى ( سطور ٧٤ وما بعدها ) وصفاً إكلينيكيًا حسنًا بالرصاص<sup>(٣)</sup> ومعه العلاج . وبالإضافة إلى الحيوانات هناك ١٢٥ نباتاً مذكورة في القصيدتين كما أن هناك ٢١ سمّاً مذكورة في القصيدة الثانية .

ونيكاندروس كان أول من أشار إلى القيمة العلاجية للعلق الماصة<sup>(٣)</sup> .  
ومن الصعب المبالغة في تقدير قيمة مثل هذه الكتابات للجماهير حتى  
ولو كانت تحمل كثيراً من الأغلاط ، فهي تحوى قدراً ما من المعلومات الطبية  
لا للأطباء وحدهم ، ولكن أيضاً لكل شخص متعلم . ولم تترجم هذه الكتابات  
إلى اللاتينية في الأزمنة الأولى ، ولذلك كان انتشاراً محصوراً في العالم البيزنطى .  
وهناك تعليق عليها باليونانية منسوب إلى يونس تترزيس (١٢ - ١) وما يثبت  
أنها بقيت تنتقل باليونانية طبعها المبكر جداً إذ أن القصيدتين كلتاها طبعا  
لأول مرة باليونانية (ش ٣٢) مع أول طبعة يونانية من ديوسكوريدس (١ - ٢)  
أصدرها مانوتيوس (فينيسيا ١٤٩٩ - كلبس رقم ٣٤٣ / ١) .

وتوجد طبعات قليلة متأخرة باليونانية واللاتينية ، ولكن أول مطبوع بلغة  
حديثة هو واحد أعده طبيب فرنسى كان شاعراً ومؤلفاً مسرحياً اسمه جاك  
جريفان (ولد في كليرمونت من أعمال بوفيزيس حوالى ١٥٤٠ ومات في تورينو في  
١٥٧٠) وسعى المطبوع « كتابان عن السموم حيث تناقش بإفاضة بعض  
الحيوانات السامة والترياقات والسموم ومضادات السموم . . . مترجم إلى شعر  
فرنسى » (جزءان . طبع في أنقرس : بلانتان ١٥٦٧ - ٦٨)<sup>(٤)</sup> وكان هذا  
العنوان جذاباً لعقول الناس في عهد النهضة .

#### فيلينوس القوصى

كان فيلينوس تلميذاً لهيروفيلوس ولذلك يجوز لنا أن نفترض أنه برز في  
النصف الثانى من القرن الثالث قبل الميلاد ، ولم يصل إلينا من كتاباته سوى  
ثنف وردت في كتابات بلىنى وجالينوس<sup>(٥)</sup> ، ويقال عنه إنه كتب نقداً  
للمعجم الأبقراطى الذى كتبه باكخيوس التناجرى ، وإنه كتب مذكرات عن  
النباتات أو عن عقاقير بسيطة . ولقد فصل فيلينوس نفسه عن أستاذه  
هيروفيلوس - إذ رفض التشخيص على أساس النبض مثلاً - وأسس ما دعى  
مدرسة الطب التجريبى التى ستكلم عنها في فصل آخر بمناسبة الكلام على  
سيرابيون الإسكندرى (٢ - ١ق . م) .



هذه المؤلفات أهمية كتاب من دساتير الأدوية عنوانه نارثكس وصف فيه أندريا بعض أنواع النبات والجنود . والعنوان ذو مغزى ، إذ أن نارثكس اسم نبات ( يشبه الجزر ) كان يحظى لدى القدماء بتقدير كبير لأنه ينتج عقاراً ذا قيمة يدعى الحثيت ( ضد التقلصات )<sup>(٩)</sup> وهو نبات ذو ساق بها نخاع حمل بروميثيوس<sup>(١٠)</sup> فيها شرارة النار من السماء إلى الأرض . وكانت سيقان نبات النارثكس تستعمل عصبياً وجبائر ومؤثرات .

ومعلوماتنا عن حياة أندريا مستمدة من سيرايون الإسكندري ( ٢-١ ق . م ) وهراقليدس التارنتي ( ١ - ١ ق . م ) ، ومن جالينوس ، فثالا نقل سرايون وصف لبيخة مذكورة في كتاب نارثكس .

### أرخاجاثوس من روما

ولنتقل الآن إلى روما ، فقد كانت أهميتها السياسية قد أصبحت ذات شأن ومسرعة في النمو ، ولكنها فيما يتعلق بالعلوم والآداب كانت ما تزال ريفية ، ولم يكن غريباً أن تدخلها<sup>(١١)</sup> العلوم عن طريق الطب لأن المرضى من الناس تبلغ بهم شدة الحاجة إلى أطباء بحيث إنهم إذا لم يجدوا الأكفاء منهم وقعوا فريسة للأدعياء . ولقد كان أوائل الأطباء الرومان يونانياً من النوعين الطيب والسبي ، فكان كثير من العبيد اليونانيين على شيء من المعرفة الطبية وكان سادتهم وأصدقاء سادتهم يستعينون بهم . وأول طبيب يوناني وصل اسمه إلينا كان أرخاجاثوس المورلي الذي فتح عيادته في روما سنة ٢١٩ ق . م .<sup>(١٢)</sup> وكان هو الأول بين كثيرين برزوا في العاصمة وفي جميع المدن الرئيسية حتى نهاية الإمبراطورية الرومانية ، وكانت عيادته واقعة بالقرب من ميدان مارسيلى العام . وليس من الواضح إذا كان أرخاجاثوس قد عمل وموّل على الطريقة اليونانية<sup>(١٣)</sup> بصفته طبيباً عمومياً ، وإنما هو على كل حال كان ناجحاً نجاحاً معتدلاً ، إذ أن اسمه عاش من بعده . وكان معدوداً أحد المواطنين الرومان ، ولكنه اتهم بالكفر والزندقة لأنه كان يؤمن بالمداواة أكثر من إيمانه بحماية

الآلهة المحليين ، ولقد تكررت هذه التهمة مراراً وفي كل مكان ، ومن الواضح أن العقل الذى يؤمن بالخرافات كان يعتبر أى مداواة علامة على عدم الإخلاص للدين ، وكلما كانت المداواة أكثر اعتماداً على العلم كانت أكثر زندقة ، وليس لدينا أية فكرة عن مقدار ما كان فى عمل أرنجاثوس من العلم ، ولا نستطيع أن نقدر كفايته الطبية ، ولكنه كان طبيباً محترفاً لا ساحراً .

والطبيب اليونانى التالى فى روما الذى جاءنا اسمه عبر القرون هو أسكليبياديس البيثانى ( ١ - ١ ق . م . ) ، وإنما يجوز لنا أن نكون على ثقة من أنه إبان القرن والنصف الذى انقضى بين الاثنتين زاول الطب فى روما يونانيون آخرون كثيرون . وكان هذان الاثنان هما المحترفين الوحيدين اللذين استطاعا الحصول على ما يعادل دبلوماً أو شهادة بالكفاية العلمية مما كان يمنح فى المدارس الطبية فى كوس وأثينا والإسكندرية ورودى وفى أماكن أخرى .

ولم يكن فى العالم اللاتينى حتى ذلك الوقت مدارس طبية وإن كنا مع ذلك نتنظر حتماً أن يوجد بعض الأطباء المقيمين يدرسون مساعديهم . ولقد كان رد الفعل ضد الأطباء اليونانيين شديداً ، ولم يكن محصوراً فى الجهال من الناس ، وإنما اشترك مع هؤلاء الرجال المتعلمون الذين كانوا مترمتين يرون من واجبهم أن يدافعوا عن الفضائل الرومانية ضد اللخلاء المتحذلقين .

ونحن سنناقش هذه الأمور بإفاضة أكثر فى الفصل الثانى والعشرين بمناسبة الكلام على سيرايبون ( ٢ - ١ ق . م . ) وعلى كاتو الرقيب ( ٣ - ١ ق . م . ) وعلى أسكليبياديس ( ١ - ١ ق . م . ) وذلك الفصل لا يتعاقب هؤلاء الرجال فقط وإنما هو يتعلق بانتقال الطب اليونانى إلى الرومان وإلينا .

## تعليقات

Galen (Kühn) 19 : 13. (١)

James Henry Breasted, The Edwin Smith Surgical Papyrus Chicago, 1930), (١١)  
pp. 105 - 109 (Isis 15, 355 - 367 (1931). Hermann Grapow : (Berlin :  
Akademie Verlag, 1954), pp. 25, 28, 52, 69, 71.

(٢) وربما كان التاريخ الذي اخترته أى حوالى ٢٧٥ ق. م. « المقدمة ج ١ ص ١٥٨ )  
مبكرًا أكثر من الواقع . ولقد كان نيكاندرس ممدوداً بين الشعراء السبعة على عهد بطلميوس الثانى .  
ويقال إنه برز هو وإراتوس فى بلاط أنتيجونوس جوناتاس ملك مقدونية ( ٢٨٣ - ٢٣٩ ) . وكان  
ذلك هو التاريخ الذى قبلته نظرياً : وقد يؤخره غيرى لمدة قرن أى إلى عهد آخر ملوك برجماء أنالوس  
الثالث فيلوماتر الذى حكم من ( ١٣٨ - ١٣٣ ق. م. ) وانظر , ( Pauly - Wissowa, Vol. 33, (1936),  
250 - 265. See also : Oxford Classical Dictionary, s.v. "Nicander".

Plumbism or Saturnism, poisoning by white lead (psimythion), Nicander (١٢)  
of Colophon, Poems and poetical fargments, ed., and trans. A.S.F. Gow  
and A.F. Scholfield (Cambridge University Press, 1953).

(٣) لم يستعمل أبقراط العلق الماصة ، ولسنا نعرف ما إذا كان نيكاندرس نجح فى  
تعميم استعمالها . ولقد استعملها يميزون من اللاذقية فى النصف الأول من القرن الأول ق. م. وفى  
العصور الوسطى كانت كلمة علقه ماصة تعنى الحيوان والطبيب كليهما . ولذلك يجوز لنا أن نفترض  
أن استعمال العلق الماصة كان قد أصبح شائعاً وقد كان شائعاً جداً فى القرن التاسع عشر « المقدمة »  
ج ٢ ص ٧٧ .

Plantin published also a Latin edition by the same Grévin (Antwerp, 1571), (٤)  
while Grévin's two discourses concerning the virtues of antimony were  
published in Paris in 1566.

Given by Karl Deichgräber, Die griechische Empirikerschule. Sammlung (٥)  
der Fragmente und Darstellung der Lehre (Berlin, 1930), pp. 163 - 164.

(٦) كارستوس فى أيوبويا ، هى أكبر جزائر بحر إيجه بالقرب من ساحل أتيكا . ولزيد  
من المعلومات عن أندرياس هذا ، انظر :  
Deichgräber (Passim) and M. Wellmann, Panly-Wissowa, Vol. 2, 2136.

(٧) تقع رفح Rhapia قرب الساحل على الحدود المصرية الفلسطينية وعلى بعد ١٥ ميلا  
جنوبى غزة على حافة الصحراء .

(٨) لست أفهم المعنى الحقيقي لهذا العنوان ، فالكلمة اليونانية تعنى شيئاً دائرياً أو تاجاً أو تاج النصر (palma) والكلمة stephane معان ماثلة، فهي تعنى لذلك حافة خوذة أو خوذة أو إكليل المرأة أو حافة أو إطار أى شيء .

(٩) ترد من الشرق الأوسط (أفغانستان) ووصفها ديسقوريدوس (١-٢) في كتابه الثالث ٩١. ولقد وصف نباتات أخرى في الكتاب ذاته : ٥٥ ، ٨٧ ، ٩٤ - ٩٨ .

(١٠) بروميثيوس ( الفكرة السابقة ) هو أخو إبيميثيوس ( الفكرة اللاحقة ) ، وينسب إليه كشف كثير من الفنون ، فقد صنع الإنسان من طين ونفخ فيه الروح بواسطة نار مصطنعة سرقها من أوليمبوس .

The urbs, to asty. (١١)

(١٢) كان ذلك بعد الحرب البونية الأولى ( ٢٦٥ - ٢٤٢ ) وقيل الثانية ( ٢١٨ - ٢٠١ ) .

(١٣) يقول نقش في جزيرة كوس « الأطباء الذين يعملون في الخدمة العامة بالمدينة » انظر :

Wilhelm Dittenberger, Sylloge inscriptionum graecarum (ed.3, Leipzig, 1920), vol. 3, p. 25, inscription 943, 1.7.